تجمع بين اتجاهات متضاربة يعدل بعضها من بعض . يجد القارىء فى الصحف شيئا من الإثارة ، ويجد الى جانب الإثارة الإفادة والتنوير ، يجد السياسة فى معناها اليومى الإخبارى العجل ، ويجد التحليل فى معناه المطمئن المتأنى الحذر ، يجد فى الصحيفة صورة الحياة اليومية وصورة من الحياة العقلية الخصبة . كان الكاتب حريصا على أن يرفع القراء إليه ، لا يهبط إليهم فى لغته ، ولا يهبط إليهم فى تفكيره ، كان يفرق تفرقة حسنة بين واجب التهذيب والتثقيف وما تسميه البلاغة العربية باسم مطابقة الكلام للقمام .

وربما وجدت اليوم هذه المطابقة تسىء إلى القارىء على خلاف ما ترى فى عصر التنوير . يفطن الكتاب إلى أن المطابقة التى تسمى باسم الشعب الآن لا تعدو أن تكون إغراء وتلهية وتسلية ومجانة وإشباعا لعواطف الفراغ .

ومن واجبنا ـ إذن ـ أن نعرف لرواد النهضة الأدبية أثرهم فى رياضة القارىء ، والارتفاع به ، وتقديم ما يحتاج إليه من الغذاء العقلى والروحى . وبعبارة يسيرة لم يكن النقد الأدبى مغلقا على نفسه ، ولم تكن حياة الشعر تعنى الشعراء والنقاد وحدهم ، بل كانت ـ على العكس ـ تعنى القراء . صحة الفهم وصحة الذوق هدفان عرف الرواد حقوقهما معرفة حسنة تحتاج إلى أن تسبر فى أناة . فهذا فصل من أروع فصول النهضة الأدبية .

كيف أسهم النقاد فى تهذيب الذوق العام ، كيف أسهموا فى بث احترام اللغة الفصيحة المختارة الأنيقة . كيف دعوا إلى تغيير النظرة إلى التقاليد والعادات والثقافة والحرية والجمال . هذه أمور أوشك الأدباء أن يهملوها ، ولكن الرواد فطنوا إلى أنهم معلمون . لم تكن وظيفة الرواد هى نقل ما قرأوا فى اللغة الإنجليزية أو الفرنسية ، كانت وظيفتهم فى المقام الأول هى إثارة المشكلات أو التحديات التى يواجهها المجتمع العربى . كيف يمكن أن نعالجها .

كانت القضايا التى يتحدث فيها الرواد تنبت ـ فى غالب الأمر ـ من المجتمع الذى يعيشون فيه . قضايا التعامل مع الغرب الذى يؤرق حياتنا على الدوام ، قضايا الشخصية العربية فى مواجهتها لهذا الغرب القوى القاسى ، وتعاملها مع الماضى الذى نحن إليه من بعض الوجوه ، ونستخزى أو نستحيى منه من وجوه ثانية . كان رواد الأدب والنقد مشغولين بفكرة الحياة الحديثة ماهى ؟ ما التقدم ؟ ماذا يعنى النشاط